كتاب وجهة العالم الإسلامي
دراسة فكرية تحليلية

تأليف: مالك بن نبي

ترجمة: عبد الصبور شاهين

دار الفكر المعاصر– بيروت

١٩٠٥ - ١٩٧٣

الباحثان
م.م. نشوان محمد احمد / القسم الأول
م.م. محمود ميسر فتحي / القسم الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:فمما لا يخفى على كل ذي لب حجم الأساة التي يعيشها عالمنا الإسلامي في عصره الحاضر، وهي قضية تحتاج إلى دراسات ومراكز بحوث تشخص الداء وتصف الدواء، وقد قام بهذه الجهود المشهودة أساتذة أفاضل ومفكرون أكفاء قدموا للمجتمع الإسلامي خلاصة دراساتهم ونتائج أفكارهم وقراءتهم لحاضر الأمة ومستقبلها وعلى رأس هؤلاء الأفذاذ المفكر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله.ويعد كتابه **(وجهة العالم الإسلامي)** إحدى تلك الدراسات التي تناولت قضية الفوضى والتراجع الذي شهده العالم الإسلامي في عقوده الأخيرة، ولأهميته فقد حاولنا أن نتناوله بالدراسة والتحليل، وقسمناه ثمانية مباحث وخاتمة. وبعد: فهذا جهد المقل، وعمل من يعمل اليوم ويرى غيره غداً، فما كان فيه من صواب فمن الله وما كان فيه من خطأ فمنا ومن الشيطان.وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المبحث الأول التعريف بالمفكر مالك بن نبي

مالك بن نبي هو أحد أعلام العرب المتخصّصين في مجال الفكر والثقافة الإسلامية خلال فترة القرن العشرين، وأحد الأشخاص الذين ساهموا في إحداث نهضة فكرية في العالم الإسلامي ، وتمكنوا من تحقيق نقلة نوعية في صياغة الفكر الإسلامي الحديث، كما يُعد واحداً من الأشخاص الذين أكملوا مسيرة ابن خلدون، فقد كانت جميع اهتماماته تصب حول مشاكل الحضارة التي حث على العناية بها، وكانت جهوده تعتمد بشكل رئيس على الأسلوب التحليليّ حيث يعرض في كتاباته أبعاد المشكلة، والعناصر الرئيسة التي يعتمد عليها في عملية الإصلاح، ولقب بألقاب عديدة منها "فيلسوف العصر" و"فقيه الحضارة" و"منظر النهضة الإسلامية".

مرحلة المولد والنشأة:-

ولد في مدينة قسنطينة الجزائرية عام (١٩٠٥م) أي في زمن كان يمكن فيه الاتصال بالماضي عن طريق أخر من بقي حياً من شهوده والإطلال على المستقبل عبر الاوائل من رواده، يحكي عن نفسه فيقول: كنت في السادسة من عمري وكان وضع عائلتي قد ساء مادياً فجدي لأبي قد باع كل ما تبقى بحوزته من أملاك العائلة مما دفع جدي لترك الجزائر إلا أن والدي لم يرافقه في هجرته لأن أمي تتمسك بالبقاء قرب اهلها الذين استقروا في تبسة، إن سقوط مدينة قسنطينة بيد الفرنسيين سنة ١٨٣٧م، كان لها وقع كبير على شخصيته وفكره(١).

مرحلة الدراسة والتعلم:-

أرسله أهله إلى المدرسة الفرنسية وفي الوقت نفسه ثابر على التردد إلى مدرسته القديمة لتعلم القرآن الكريم فكان يقصدها كل يوم في الصباح الباكر ليكون بعدها عند الثامنة صباحاً في المدرسة الفرنسية ولا يخفى ما في ذلك من صعوبة كبيرة على طالب صغير السن، لقد مكنه التفوق الدراسي من الحصول على منحة لمواصلة الدراسة في مدينة قسنطينة التي كانت مَعْلَماً للثقافة العربية والإسلامية قبل الاحتلال الفرنسي، وهناك بدأ يتعرف على الثقافة الفرنسية. بعد أن أنهى تعليمه الثانوي عام ١٩٢٥ سافر إلى فرنسا لكنه سَرَعان ما عاد إلى الجزائر لعدم حصوله على فرصة عمل، وفي سنة ١٩٣٠سافر إلى فرنسا مرة أخرى لمواصلة دراسته، غير أنه لم يستطع الانتساب إلى معهد الدراسات الشرقية، فتوجه إلى مدرسة اللاسلكي حيث حصل على **شهادة مهندس كهرباء عام ١٩٣٥.**

مرحلة التكوين والعطاء الفكري والثقافي:-

في عام ١٩٢٨م تعرف مالك بن نبي على رائد الحركة الإصلاحية بالجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وفي باريس تعرف على مشكلات أمته ووطنه، وفيها أيضاً عاش تجربة غنية تَعرف من خلالها على روح الحضارة الغربية وأفكارها. وفي تلك الفترة انخرط في نشاط فكري وسياسي بين المغتربين، وكان عنوان أول محاضرة ألقاها هناك **لماذا نحن مسلمون** وذلك في سنة ١٩٣١م، وقد استفز ذلك الشرطة الفرنسية مما دفعها إلى استجوابه على إثرها، كما شارك في تأسيس "**جمعية الوحدة المغاربية**" تحت إشراف الأمير شكيب أرسلان، وأصبح ممثلا للجزائر فيها، وفي مارسيليا أشرف على نادي "**المؤتمر الجزائري الإسلامي**"، بعدها سافر إلى مصر عام ١٩٥٦م وأقام بالقاهرة حيث سخر نفسه وقلمه لخدمة ثورة التحرير الجزائرية، وهناك عمق معرفته باللغة العربية بعد أن كان ضليعا في اللغة الفرنسية(٢). كان بن نبي كثير الاطلاع والقراءة في التأريخ والأدب العربي القديم، استطاع من خلال ذلك أن يرصد حركة الاستعمار وقسوته التي أحدثت تغييرات خطيرة في بنية المجتمع الجزائري، كل ذلك كان سبباً -أيضاً- في توجيه مساره الفكري والثقافي إلى

البحث عن أسباب ضعف وتخلف العالم الإسلامي، ومن ناحية أخرى محاولة البحث عن ايجاد الحلول والمعالجات العلمية والعملية للخلاص من هذا التقهقر والضعف.

الوظائف التي شغلها:-

عمل في مدينة تبسة مساعد مكتب في محكمة المدينة، وفي سنة ١٩٢٧ التحق بمدينة آفلو بولاية الأغواط للعمل في محكمتها، وبعد عودته إلى الجزائر عام ١٩٦٣م تقلد عدة مناصب أكاديمية أهمها منصب مستشار للتعليم العالي، ومدير لجامعة الجزائر ثم مدير للتعليم العالي، إلى أن استقال عام ١٩٦٧م وتفرغ لنشاطه الفكري والدعوي[٣].

مرحلة التأليف والبحث:-

ترك مالك بن نبي -رحمه الله- سجلاً حافلاً بالعطاء الفكري، إذ ألف أكثر من ثلاثين كتاباً أهمها ما يأتي:-

- **مشكلة الثقافة عام ١٩٥٦م.**
- **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة عام١٩٦٠م.**
- **الفكرة الآفروآسيوية عام ١٩٥٦م.**
- **الكومنولث الإسلامي عام ١٩٦٠م.**

من أشهر كتبه "**الظاهرة القرآنية**" و"**وجهة العالم الإسلامي**" و"**شروط النهضة**" و"**مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**" نشر له بعد وفاته كتابان:

الأول: دور المسلم ورسالته في القرن العشرين عام ١٩٧٧م.

الثاني: بين الرشاد والتيه عام ١٩٧٨م. وقد ترجم الدكتور عبد الصبور شاهين عدداً من كتبه الصادرة باللغة الفرنسية إلى اللغة العربية.

وفاته:-

توفي مالك بن نبي – رحمه الله- في يوم ٤ شوال ١٣٩٣ الموافق ٣١ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٣م.

المبحث الثاني مدخل إلى كتاب وجهة العالم الإسلامي

أولاً: محتويات الكتاب

يحتوي الكتاب على مدخل الدِّراسة، وستة فصول، وخاتمة، وهي كما يأتي:-

الفصل الأول: مجتمع ما بعد الموحدين، وينقسم إلى ثلاثة محاور:-

- الظاهرة الدورية.
- إنسان ما بعد الموحدين.
- الاتصال الأول بين أوربة والعالم الإسلامي.

الفصل الثاني: النّهضة، وينقسم إلى محورين:-

- حركة الإصلاح التي قام بها علماء الدين.
- الحركة الحديثة التي قام بها المثقفون والمفكرون.

الفصل الثالث: فوضى العالم الإسلامي الحديث، وينقسم إلى محورين:-

- العوامل الداخلية: القابلية للاستعمار.
- العوامل الخارجية: الاستعمار عن طريق إذلال الفرد، وتعطيل نهضة المجتمع.

الفصل الرابع: فوضى العالم الغربي.

الفصل الخامس: الطُّرُق الجديدة.

الفصل السادس: بواكير العالم الإسلامي.

الخاتمة: المآل الروحي لعالم الإسلام.

ثانياً: نظرة عامة على منهج المؤلِف والمؤلَف

من خلال قراءة ومتابعة ما جاء في هذا الكتاب القيم (وجهة العالم الإسلامي) تم رصد نقطتين مهمتين أود ذكرهما قبل الدخول في الحديث عما جاء في ثنايا الكتاب وفصوله نظراً لما تعطيه هاتان النقطتان من صورة مجملةٍ عن المؤلِف ومنهجه في كتابه هذا وعن صلة هذا الكتاب بكتاب (الاتجاهات الحديثة في الفكر الإسلامي)، هاتان النقطتان هما:-

١- لاحظت ان المؤلف يتميز باستقلاليته في البحث مع بروز شخصيته، وله تفكيره المستقل وهذا ما يمكن أن يلمسه أي قارئ لهذا الكتاب وهذا ما نلمسه بوضوح حين يقول: "فأنا لا أعتقد أن صفة (الذرية) تلك اللازمة من لوازم العقل وعاجز عن التعميم خاصةً فطريةً من خواص الفكر العربي على ما أكده المستشرق الإنجليزي المحترم، بل هي طراز من طرز العقل الإنساني عامة عندما يقصر عن بلوغ درجة معينة من التطور والنضج، او عندما يفوتها، وبعبارة أدق يقع العقل المعمم في التطور والتاريخ بين مرحلتين من مراحل (الذرية)، فالفكر غالبا ما يكون ذرياً في خطواته الأولى، كما كانت الحال في أوربا قبل (ديكارت)، وكما صارت إليه الحال بعد عصر ابن خلدون في العالم الإسلامي، عندما توقف كل جهد عقلي"، وكذلك عند قوله: "ولست أيضاً مع العالم الإنجليزي، فيما ذهب إليه حين تحدث عن (الاتجاه الإنساني) في الحركة الإسلامية الحديثة فعزاه إلى تأثير الثقافة الأوربية، فإن من الواجب أولاً أن نحدد مصطلحاتنا، فإذا كنا نتحدث عن نزعة إنسانية تقليدية أو دبلوماسية، فإنا نعترف مختارين بأن الثرثرة الإنسانية ذات جرس جميل، وبأن المتاع اللغوي لدى بعض المسلمين المحدثين قد أثري لبعض الجمل المنمقة، وببعض الاشعرة الخلابة".

٢- كما لا حظتُ أيضاً أن المؤلِف يتصف ويتحلى بالحيادية والموضوعية حيث أقر بأنه بعد وضع خطة كتابه اطلع على كتاب (الاتجاهات الحديثة في الفكر الإسلامي) للمؤلف (جِب) وأقر بانه سيكون مرشدا ثميناً لكتابه حيث قال: "كنت قد فرغت من تخطيط هذه الدراسة، عندما جاءني أحد أصدقائي وقد كان على علم بمشروعي، فأطلعني على المؤلَف القيم الذي وضعه الأستاذ (جِب) بعنوان (الاتجاهات الحديثة في الفكر الإسلامي) فوجدت أن موقف المؤلف الكبير يشبه في مواطن كثيرة موقفي الذي حاولت مع قِصَر باعي أن أجلوه، فهل كان عليّ أن أراعي هذا التشابه فأكتفي بإحالة القارئ إلى آراء أستاذ أكسفورد، وخاصة فيما يتصل بالفصلين الثاني والثالث من هذا الكتاب ..! لقد آثرت أن أواصل طريقي متخذاً منه سنداً يؤيد رائي، وهو سند له عندي وزن كبير، غير أنه يبدو لي من الضروري أن أشير إلى بعض المواطن التي اختلفنا فيها كيلا أعود إليها داخل الكتاب تجنباً للجدل" وقال أيضاً: "وأعود فأكرر القول: إن كتاب المستشرق الإنجليزي يعد مرشداً ثميناً لكتابي هذا في دراسة الأمراض (شبه الصبيانية) في العالم الإسلامي، ولَكَم أتمنى ان يتأمل موضوعاته كثيرون من المسلمين كما تأملتها، وأن يقدروا فيه نزاهته التي سمت على كل مركبٍ عقيدي أو سياسي".

المبحث الثالث تحليل الفصل الأول (مجتمع ما بعد الموحدين)

أولاً: الظاهرة الدورية

تحت هذا العنوان ينتقد المؤلف طريقة دراسة الباحثين المعاصرين للحضارات الإنسانية ويتهمهم في القصور في بحثهم واقتصارهم على جوانب ضيقة لا تتجاوز رقعتها الجغرافية مع أن هناك جوانب متعددة ينبغي عدم اهمالها، وفي هذا الصدد يقول: "لدراسة التاريخ جوانب متعددة فإذا ما تناولناه بالقياس إلى الفرد كان دراسة نفسية، إذ يكون دراسة للإنسان بوصفه عاملاً نفسياً زمنياً في بناء حضارة ولكن هذه الحضارة تعد مظهراً من مظاهر الحياة والفكر الجماعي ومن هذا الجانب يعد التاريخ دراسةً اجتماعية، إذ يكون دراسة لشرائط نمو مجتمع معين لا يقوم نموه على الحقائق الجنس أو عوامل السياسة بقدر ما يخضع لخصائص الأخلاقية والجمالية والصناعية المتوافرة في رقعة تلك الحضارة، على أن هذا المجتمع ليس معزولاً ، بل إن تطوره مشروط ببعض الصلات الضرورية مع بقية المجموعة الإنسانية ، ومن هذا الجانب يصبح التاريخ ضرباً من الميتافيزيقا، إذ إن مجاله يمتد الى ما وراء السببية التاريخية، لكي يلم بالظواهر في غايتها، هذا الجانب الميتافيزيقي يضم الأسباب التي لا تدخل ضمن ما أطلق عليه توينبي (مجال الدراسة) لحضارة ما، فالمؤرخون حين يدرسون مثلاً انهيار الإمبراطورية الرومانية ، يقصرون الأسباب التي حتمت ذلك الانهيار على نطاق معين ينطبق على رقعة تلك الإمبراطورية من ناحية، وعلى السهول الشمالية التي تدفقت منها القبائل الجرمانية من ناحية أخرى خلال القرنين الرابع والخامس، فهذا بالتحديد هو المجال الذي يرى فيه المؤرخون تأثير الأسباب التاريخية التي حلت امبراطورية روما، وهناك تكونت الموجة الجرمانية التي اطلق عليها المؤرخون الألمان volkerwanderung أي (هجرة الشعوب) والتي تحطمت على الحدود إلى أن استطاعت أن تحطم كل شيء في طريقها. إن من الممكن أن نقف عند هذا الجانب، أما إذا أردنا دراسة أسباب مد تلك الشعوب، فسنجد أنفسنا أمام عمليه متسلسلة في عناصر تكونها، توجد خارج المجال الروماني والمجال الجرماني".

كما ينتقد بعض الباحثين نظراً لما يقومون به من بتر لبعض المفاهيم التاريخية بأن ينقد كل دراسة للحضارة الإسلامية تسير على ذلك النهج وفي هذا الصدد يقول: "ولقد يحدث أن يقوم بعض الكتاب ببتر المفهوم التاريخي، كما فعل (توسيديد)، حين أبطل ماضي الإنسانية كله بقوله: إن حدثاً مهما لم يقع في العالم قبل عصره، فمثل هذه الأقوال هي التي تخلق (ثقافة الإمبراطورية)، تلك الثقافة التي تقوم على أساطير السيادة العنصرية، والاستعمار...ناشر الحضارة .. "، ثم يعود ليقول: "هذه الملاحظات تدفعنا إلى أن ننتقد مسلك بعض الباحثين حين ينظرون الى ظاهرة (**الحضارة**) منفصلة عن ظاهرة (**الانحطاط**) وأن العالم الإسلامي لفي مسيس الحاجة في هذه النقطة إلى أفكار واضحة تهدي سعيه نحو النهضة ولهذا فان مما يهمنا في المقام الأول أن نتأمل الأسباب البعيدة التي حتمت تقهقره وانحطاطه". ويقرر المؤلف أيضا تحت هذا العنوان أن الحضارة تأخذ طابعاً أسماه (**دورة الحضارة**) فتبدأ بجانب روحي يحركها ويدفعها إلى الأمام فإذا ما تدفقت هذه الرياح عن دعم الحضارة وتحريكها سقطت تلك الحضارة وانحطت لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوي بتأثير جاذبية الأرض وفي هذا الصدد يقول: "عندما يبلغ مجتمع ما هذه المرحلة، أي عندما تكف الرياح التي منحته الدفعة الأولى عن تحريكه تكون نهاية (**دوره**) وهجرة (**الحضارة**) إلى بقعة أخرى، تبدأ فيها دورة جديدة طبقا لتركيب عضوي تاريخي جديد، وفي البقعة المهجورة يفقد العلم معنى كله فأينما توقف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل إذ يفقد الانسان تعطشه إلى الفهم وإرادته للعمل عندما يفقد الهمة و(**قوة الايمان**) ".وهنا نبه إلى أن رياح الإيمان التي حركت الحضارة الإسلامية لم تفقد سيطرتها مطلقا على الفرد ولكنها انحسرت ليشكل الايمان في حياة الفرد نزعة فردية وليست اجتماعية لذلك أخذ بعضهم بالتخلي عن مسؤوليته الاجتماعية والجماعية ولجأ إلى صوامع تشبه صوامع الرهبان وفي هذا يقول: "ومع ذلك فمن المناسب أن نزيل هنا لبساً قد يقع فيه بعض القراء: هو أن الإيمان لم يفقد مطلقاً سيطرته في العالم الإسلامي حتى في عهود الانحطاط، بل إن هذه الملاحظة تصبح جوهرية حين يكون الأمر أمر تقوم أخروي للقيم الروحية، أما حين نتناول المشكلة من الوجهة التاريخية والاجتماعية فينبغي ألا نخلط نجاة المرء في عاقبة أمره بتطور المجتمعات". ويقول أيضاً: "فالتاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما بين جهده وبين مثله الأعلى وحاجاته الأساسية، والذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة بوصفه ممثلاً وشاهداً(٤). وينتهي التاريخ بالإنسان المحلل، بالجزيء المحروم من قوة الجاذبية، بالفرد الذي يعيش في مجتمع منحل لم يعد يقدم لوجوده أساساً روحياً، أو أساساً مادياً، فليس أمامه حينئذ إلا أن يفر إلى صوامع المرابطين، أو إلى أي مستقر آخر وهذا الفرار صورة فردية للتمزق الاجتماعي". ويبين المؤلف أيضاً أن من أهم العوامل التي تقضي على الحضارة وتنهي سيادتها لتحل محلها حضارة أخرى عوامل التعارض الداخلية وفي هذا يقول: "**لقد بلغت عوامل التعارض الداخلية قيمتها وانتهت إلى وعدها المحتوم وهو تمزق عالم واهن وظهور مجتمع جديد ذي معالم وخصائص واتجاهات جديدة فكانت تلك الانحطاط اذ لم يعد الانسان والتراب والوقت عوامل حضارة، بل أضحت عناصر خامدة ليس لها فيما بينها صلة مبدعة**".

ثانياً: إنسان ما بعد الموحدين

تحت هذا العنوان يؤكد المؤلف على وجود وراثة اجتماعية إلى جانب الوراثة الجسمية وأن الإنسان في الوقت الحاضر لازال يحمل نفس الهموم وصفات الانسان في ما بعد دولة الموحدين وسقوط دولتهم وأن شهادة (**البكلوريا**) بالعصرية وإن اكتسبت مظهر الانسان العصري بينما تحمل أخلاقه وميوله وأفكاره صورة (**إنسان ما بعد الموحدين**)، وأنه طالما ظل مجتمعا عاجزاً عن تصفية هذه الوراثة السلبية التي أسقطته منذ ستة قرون وما دام متقاعساً عن تجديد كيان الانسان طبقا للتعاليم الإسلامية الحقة ومناهج العلم الحديثة فان سعيه الى توازن جديد لحياته وتركيب جديد لتاريخه سيكون باطلاً عديم الجدوى وفي هذا الصدد يقول المؤلف: "عندما نقوم بتحليل نشاط الأفراد وأذواقهم في بيئة معينة نجد عوائد سائدة تنتقل فيما بينهم كابراً عن كابر فهناك وراثة اجتماعية كما أن هناك وراثة جسمية"، ويقول أيضاً: "هذا الوجه المتخلف الكئيب ما زال حياً في جيلنا الحاضر نصادفه في المظهر الرقيق البريء الذي يتميز به فلاحنا الوديع القاعد، أو راعينا المترحل المتقشف المضياف، كما نصادفه في المظهر الكاذب الذي يتخذه ابن أصحاب (المليارات) نصف المتعلم، الذي انطبع في الظاهر بجميع أشكال الحياة الحديثة، فأكسبه (مليار) أبيه وشهادة (البكلوريا) مظهر الإنسان العصري، بينما تحمل أخلاقه وميوله وأفكاره صورة (إنسان ما بعد الموحدين)، وطالما ظل مجتمعنا عاجزاً عن تصفية هذه الوراثة السلبية التي أسقطته منذ ستة قرون، وما دام متقاعساً عن تجديد كيان الإنسان طبقاً للتعاليم الإسلامية الحقة ومناهج العلم الحديثة فإن سعيه إلى توازن جديد لحياته وتركيب جديد لتاريخه سيكون باطلاً عديم الجدوى، إن العلوم الأخلاقية والاجتماعية والنفسية تعد اليوم أكثر ضرورة من العلوم المادية، فهذه تعد خطراً في مجتمع مازال الناس يجهلون فيه حقيقة أنفسهم، ومعرفة إنسان الحضارة وإعداده أشق كثيرا من صنع محرك أو ترويض قرد على استخدام رباط عنق، وإنسان ما بعد

الموحدين في أية صورة كان –باشا أو عالماً مزيفاً أو مثقفاً مزيفاً أو متسولاً– يعد عموماً عنصراً جوهرياً فيما يضم العالم الإسلامي من مشكلات منذ أفول حضارته، وهو عنصر لا ينبغي أن يغيب عن أنظارنا عندما ندرس نشأة المشكلات وحلولها التي تشغل اليوم –فيما يبدو– الضمير الإسلامي".

المبحث الرابع تحليل الفصل الثاني (النهضة)

ذكر المؤلف في هذا الفصل وتحت عنوان (حركة الإصلاح) أن الحركات التاريخية صدرت عن تيارين: الأول: تيار الإصلاح الذي ارتبط بالضمير المسلم، والثاني: تيار التجديد وهو أقل عمقاً وأكثر سطحية وهو يمثل مطامح طائفة اجتماعية جديدة تخرجت من المدرسة الغربية ومن أمثلتها: الحركة الجامعية التي قامت في **(عليكرة)** بالهند وفيما يأتي بيان وتحليل ذلك.

أولاً: تيار الإصلاح.يرى مالك بن نبي أن هذا التيار قد شق طريقه منذ عصر ابن تيمية يحبو تارة وينشط أخرى ومن الحركات التي صنفها المؤلف مع هذا التيار امبراطورية الموحدين القوية في افريقية الشمالية، ودولة الوهابيين في الشرق على يد محمد بن عبد الوهاب ثم اكتسحها محمد علي بإيعاز من الباب العالي وتأييد من الدول الغربية عام(١٨٢٠) ومع ذلك فقد بقى روح الوهابية حياً حتى تمكن القائمون بها من الظهور مرة أخرى عام(١٩٢٥) في صور المملكة الوهابية الحديثة، وقد وجدت هذه الحركة منذ سقوط الدولة الوهابية الأولى الضمير الذي يعكس لدى العالم الإسلامي الحديث متمثلا ذلك في ضمير جمال الدين الافغاني الذي كان له هدفان رئيسان:-

الهدف الأول: تقويض دعائم نظم الحكم الموجودة آنذاك لكي يعيد بناء التنظيم السياسي في العالم الإسلامي على أساس الاخوة الإسلامية التي تمزقت في صفين وبددتها النظم الاستعمارية نهائياً.

الهدف الثاني: مكافحة المذهب الطبيعي أو المذهب المادي الذي كان يعتقد أنه كامن في تعاليم أحمد خان التي كان ينشـرها في (جامعة عليكرة) وأنه راجع إلى التأثير الخفي لأفكار الغرب ثم جاء من بعده الشيخ محمد عبده الذي كان عليه أن يواجه مشكلة الإصلاح في شتى نواحيه، وفي ختام الحديث عن الحركة الإصلاحية بمدارسها المتعددة والممتدة عبر الزمن يقول المؤلف ما نصه: "إن الحركة الإصلاحية لم تستطع تغيير النفس الإسلامية، بل لم تستطع أن تترجم إلى لغة الواقع فكرة (الوظيفة الاجتماعية) للدين، ولكنها –على أية حال– نجحت في إزالة الركود الذي ساد مجتمع ما بعد الموحدين حين أقحمت في الضمير الإسلامي فكرة مأساته المزمنة، وإن كان ذلك قد اقتصر على المجال العقلي، فإذا ما أريد للنهضة أن تبرز إلى عالم الوجود فإن علينا أن نواجه مشكلة الثقافة في أصولها".

ثانياً: الحركة الحديثة:في مقابل المدارس الناتجة عن التيارات الإصـلاحية تبرز لنا مدارس أخرى ناتجة عن تيارات وحركات حديثة تحاول ان تدخل الى الحياة الإسلامية عناصـر ثقافية جديدة وإذا كانت المدارس الأولى الإصـلاحية قد تمكنت من قطع الصـلة بماضـي ما بعد الموحدين فان المدارس الثانية – الحديثة – قد أحدثت اتصالاً معينا بالفكر الغربي.

وانطلاقا من هذه النقطة فقد اخذ المؤلف على هذه المدارس والحركات الحديثة مآخذ عدة أبرزها:-

١- عدم امتلاك المدارس الحديثة بحسب الواقع نظرة متكاملة لا في أهدافها ولا في وسائلها وفي هذا يقول المؤلف: "الحركة الحديثة ليس لها في الواقع نظرية محددة، لا في أهدافها ولا في وسائلها، والأمر بعد هذا لا يعدو أن يكون غراماً بالمستحدثات، فسبيلها الوحيد هو أن تجعل من المسلم (زبوناً) مقلداً– دون أصـالة– لحضـارة غريبة تفتح أبواب متاجرها أكثر من أن تفتح أبواب مدارسـها، مخافة أن يتعلم التلاميذ وسائل استخدام مواهبهم في تحقيق مآربهم، ويكفينا لكي ندرك هذا أن ننظر إلى تكوين البعثات الدراسية التي ترسلها مصـر سنوياً الى الجامعات الأوربية وأحدث هذه البعثات، وهي التي أرسـلت عام١٩٤٧م كانت تتكون تقريبا من سـتين طالباً، لم يخصـص واحد من بينهم للدراسـات الفنية".

وبناءً على ذلك فان الحركة الحديثة لم تتجه نحو الآمال ووسائل أدائها بل اتجهت الى الأشكال والأذواق والحاجات بحسب نظر المؤلف.

٢- انعدمت لدى مدارس الحركة الحديثة فكرة النهضـة ذاتها فأصبحت ثانوية لأنهم لم يخالطوا حياة بلادهم إلا في الميدان السياسي، وفي هذا الصـدد يقول المؤلف: "أما المُحْدَثون فقد انعدمت لديهم فكرة النهضـة ذاتها فأصـبحت ثانوية، لأنهم لم يخالطوا حياة بلادهم إلا في الميدان السياسي وليس من شأننا هنا أن ننفي ما أسهموا به، بل أن نبين طبيعته ونحدد أهميته، فإن المسألة في نظرة المحْدثين لم تكن مسألة تجديد العالم الإسلامي وبعثه، وإنما كان انتشاله من فوضـاه السياسية الراهنة، وهذه فكرة مستعارة لا ترى في الواقع مشكلة الفرد المسلم، بل ترى مشكلة النظم الأوربية والشواهد على ذلك كثيرة، وإن كانت أحياناً مؤسية، فقد رأيت ذات يوم في شـوارع الجزائر شـاباً مكباً على (صندوق

قمامة) يلتمس غذاءه وقد علا رأسه إعلان على الحائط يدعو إلى المطالبة (بسلطة دستورية)، أَوَليس هذا دليل على أن الموحدين بهذا التناقض المشؤوم لم يقتربوا مطلقا من رجل الشارع، ولم يتكفلوا مؤونة معرفة ما يتصل بمصيره المحزن معرفة صحيحة وواقعية وعاجلة".

وبما أن قد عهدنا المؤلف منصفا فهو كعادته في الإنصاف لم يترك هذه المدرسة الحديثة من غير أن ينصفها على رغم المآخذ التي أخذها عليها فقد ذكر أن هذه الحركة قد نجحت في بلورة الوعي الجماعي الذي كان ينقص البلاد الإسلامية منذ صفين، حيث يقول المؤلف: "إن هذه الحركة قد نجحت في بلورة الوعي الجماعي الذي كان ينقص البلاد الإسلامية منذ صفين، فقامت في هذه البلاد بدور السهم الذي إن لم يرشد الناس إلى الهدف الجوهري فإنه قد دلهم ولا شك على أهداف عملية صالحة لانتزاع الجماهير المسلمة من نزاعات الاستهتار والركود"، ولم يقتصر أثرها على هذا بل خلقت هذه الحركة الحديثة تياراً من الأفكار صالحاً للمناقشة كما يقول المؤلف: "أما في المجال الفكري فإذا كانت الحركة الحديثة لم تأت بعناصر ثقافية جديدة لعدم اتصالها الواقعي بالحضارة الحديثة، وانفصالها الفعلي عن ماضي ما بعد الموحدين، فإنها قد خلقت بما جلبت من الغرب تياراً من الأفكار صالحاً للمناقشة، وإليه يرجع الفضل في أن وضع على بساط البحث جميع المقاييس التقليدية".

المبحث الخامس تحليل الفصل الثالث فوضى العالم الإسلامي الحديث (العوامل الداخلية والخارجية)

يرى المفكر مالك بن نبي أن الفوضى التي يعيشها العالم الإسلامي في العصر الحاضر تشكلت بفعل عوامل داخلية وأخرى خارجية، وفيما يأتي تحليل لما ذكره.

أولاً: العوامل الداخلية:يرى بن نبي أن العالم الإسلامي يعيش مشكلات داخلية، وقد ذكر أمثلة بسيطة تعكس لنا حجم الفوضى الداخلية التي يعيشها العالم الإسلامي في العصر الحاضر، وهي:-

١- مشكلة اضطهاد المرأة وهي مشكلة دفعت أحد كبار المفكرين وهو محمد إقبال بعد أن كان محافظاً فيما يتصل بمشكلة المرأة إلى أن يعلن حزنه وقلقه من هذه القضية في نهاية حياته، وفي هذا الصدد يقول: "فإقبال يرى أن حل مشكلة المرأة لا يمكن أن يكون في وضعها الراهن المؤسي كما أنه فيما درجت إليه أختها الأوربية، ومع ذلك فإنه لم يقترح لنا حلاً وسطاً بين هذين القطبين، فلم يكن اضطراب فكره إلا صداً لذلك الاضطراب العام الذي يسود التفكير الإسلامي، بعد قرابة نصف قرن من الإصلاح ومحاولة التكيف مع الأسلوب الغربي، فشكل النهضة الإسلامية الراهن هو خليط من الأذواق ومن المحاولات، ومن تذبذب ومن مواقف التدين أيضاً، فهي في الواقع قد اختارت الطريق الذي يقضي لها ما تريد من (أشياء) و(حاجات)، دون أن تبحث عن (الأفكار) و(الوسائل)".

٢- كذلك مشكلة التعليم فمضمون التعلم في مدارس الإصلاح هو المضمون نفسه منذ ستة قرون على الرغم من أن الأستاذ وتلاميذه أصبحوا يجلسون على الكراسي ويحملون القماطر وكان مسلك المسؤولين عن الثقافة العربية غريبا شديد الغرابة، فقد كانوا يستهدفون غايات دون أن يطلبوا وسائلها، إذ لم يعتزموا حتى الآن العودة إلى نظام العدد العربي الذي أخذ به الغرب منذ عهد(هربرت)، ومع ذلك فليسوا هم وحدهم المسؤولين عن هذا الموقف المتناقض، إذ إن القاسم المشترك بينهم وبين سته قرون مضت من الانحطاط يؤدي بالتيار الحديث وباتجاه الإصلاح معاً إلى ذلك الخليط الملفق مع محدثات مستعارة ورواسب متوارثة.

٣- مشكلة القواعد الثلاث التي يرتكز عليها التخلف الحضاري، وهذه القواعد هي:-

أ- لسنا بقادرين على فعل شيء لأننا جاهلون.

ب- لسنا بقادرين على أداء هذا العمل لأننا فقراء.

ت- لسنا بقادرين على تصور هذا الأمر لأن الاستعمار في بلادنا.

هذه القواعد الثلاث والتي اسماها المؤلف **(الأدوار الغنائية الثلاثة)** هي العملية التي يفسر بها أصحاب النوايا الحسنة عجزهم كما يستخدمها الدجالون ليدافعوا عن مشروعاتهم المربحة، وقد دحض المؤلف هذه المزاعم بكلام علمي طويل ورصين، حاصله أن في الأمة أناساً ذوي علم وفهم يقع على عاتقهم تربية بني جلدتهم وتعليمهم وأن الأمة لا تعاني من الفقر بقدر ما تعاني من سوء في توزيع ثرواتها ومواردها، وقد ساق المؤلف أمثلة على ذلك حيث قال: "وأسطورة الفقر ليس بأقل خطراً، وحسبنا أن ننظر إلى ما يملك الفرد المسلم الثري من مال لنرى مدى فاعليته الاجتماعية، لقد زاد أغنياء المسلمين على فقرائهم في العطل على الرغم مما يملكون من ثروات، وكثير من أولئك الأغنياء لا يهتمون برعاية طفل مسلم لتربيته تربية عملية أو فنية، بل لا يهتمون برعاية عمل ذي فائدة عامة، فيقبلون عليه طائعين متنازلين عن قليل من رفاهيتهم ومع ذلك فليس هذا النقص بمقتصر عن الفرد فهو موجود في محيط المنظمات الثقافية التي لم تتعود أن تتنازل عن بعض

النفقات الزائدة في سبيل تشجيع الثقافة والمساعدة على نشرها، إنه التسابق إلى السرف المخل الذي لا يبدو الفقير فيه أقل استعداداً من الغني وإلا فلننظر أين يستخدم الفقراء نقودهم ؟ لقد لاحظت ذلك أخيرا في قرية صغيرة من قرى قسنطينة حيث توجد مدرسة هي المؤسسة الوحيدة ذات النفع العام، هذه المدرسة توازن بصعوبة ميزانيتها السنوية المتواضعة في حدود سته مئة ألف فرنك، ولكني قمت بتقدير إجمالي من واقع الإحصاءات، خرجت منه بنتيجة هي أن هؤلاء الفقراء الذين يعانون الفقر فعلاً قد أنفقوا في ليلة واحدة أكثر من مائتي ألف فرنك، ما بين دارَين للخيالة وملعب لسرك وكوخ قمار وبعض المقاهي، فلو أننا اعتمدنا على جملة أرقام من هذا النوع لأمكننا أن نقوّم سعر فاعلية رأس المال المسلم، أعني النسبة بين ميزانية المشروعات النافعة – كالمدرسة – وميزانية التوافه التي أحصينا أنواعها، وسنجد أن نسبة السفه في الحالة المذكورة ٩٥٪ وهذا هو دليل التطور المقتصر على نمو الحاجات السائد في جميع ميادين الحياة الإسلامية الحديثة، على أن نسبة هذا الدليل ترتفع في الحفلات الرسمية ومهرجانات الزواج والختان وفي المآتم، وهي ومناسبات تحدث نزيفاً مالياً رهيباً في حياة العائلات، هذه الملاحظات صادقة مهما أردنا تطبيقها في أي مجال من مجالي الحياة خاص أو عام، ومن أبلغ الأمثلة على ذلك ميزانية وفد الجامعة العربية إلى الأمم المتحدة عام ١٩٤٨، لقد كان هذا الوفد يتصرف فيما يقرب من نصف مليون دولار خلال إقامته بباريس، لم ينفق منها شيئاً في نشر أي وثيقة لعرض مسألة فلسطين على الرأي العام العالمي، بينما أغرق اليهود إغراقا بدعاياتهم، هذا التفاوت الهائل بين الوسائل التي بأيدينا والنتائج التي نحصلها منها هو صورة نموذجية لجميع ألوان النشاط الاسلامي العام، نحن فقراء، فما في ذلك شك، ولكن لا نحمل في جنوبنا هماً لعلاج هذا الوضع باستخدام الرسائل المتاحة لنا استخداما مجديا، وكم ثمرة من ثمار الفكر ذات الأهمية الخطيرة ننتظر دون أمل نشرها لعجز أصحابها المالي، بينما الأموال العامة تُهَرَّب إلى حيث لا ندري، ليس حالة الوفد العربي في باريس استثناء يرجع الخطأ فيه إلى باشوات مصر لأنه حيث ما وجد المال في المجال الخاص أو العام لاحظنا سوء استعماله بل لو أنهم زادوا ميزانية هذا الوفد لكان من المتوقع الكثير ألا يستغلها في زيادة وسائله وصلاحيته، وإنما يزيد من حاجياته ونفقاته، فليست المشكلة على هذا مالية ولكنها مشكلة نفسية وفنية، إنها مشكلة توجيه رأس المال".

أما القاعدة الثالثة وهي ما عبر عنها المؤلف بـ(أسطورة الاستعمار) فقد أجاب عنها بقوله: إن هناك حركة تاريخية ينبغي ألا تغيب عن نواظرنا، وإلا غابت عنا جواهر الأشياء فلم نرَ منها غير الظواهر، هذه الحركة لا تبدأ بالاستعمار بل بالقابلية له فهي التي تدعوه هذه القابلية هي التي يقوم على أساسها الاستعمار وهي التي ينبغي أن تعالج حيث إن هناك نتيجة منطقية وعلمية تفرض نفسها وهي أنه إذا أردنا أن نتحرر من الاستعمار فإنه يجب أولاً أن نتحرر من سببه وهو القابلية للاستعمار، وأن نكف عن نسج الخرافات، وهكذا نرى أن المجتمع الإسلامي يجد نفسه مرات كثيرة في مواجه مشكلات من هذا النوع وهي بحاجة إلى حلها بطريقة واعية وموفقة، بحاجة إلى إبداع في الوسيلة إبداعاً يُشْبِع حاجتها الشديدة فيقوم على مبدئين لا فوضوية فيها وهذان المبدئان ذكرهما المؤلف:-

١- أن نتبع سياسة تتفق وسائلنا.

٢- أن نوجد بأنفسنا وسائل سياستنا.

ومن هذين الاصلين تنتج مرحلتان متتابعتان:-

أولاهما: مرحلة السياسة التي تتفق مع الوسائل الأولية الحاصلة، وهي الانسان والتراب والوقت، وليس معنى ذلك أن نقصي الوسائل الثانوية التي تمنحنا إياها المصادفات أو الملابسات، ولكن علينا أن ندرك أن هذه الملابسات ليست هي القواعد الأساسية للسياسة، بل هي مجرد منح وإمكانيات مكملة تنعم علينا بها المصادفة، فلو أننا أفسحنا لها مكاناً في تقديرنا لأوشك أن نتورط في نوع من الشاعرية السياسية، والنتيجة الضرورية لتلك المرحلة هي تصفية القابلية للاستعمار والقضاء عليها قضاء مبرماً.

وثانيهما: مرحلة التغيير المتدرج لما بين أيدينا من وسائل بدائية كما نحيلها وسائل أكمل فتكون قادرة على تعديل مختلف الظروف البيئية شيئا فشيئا.وينبغي أن يكون من نتائج هذه المرحلة إلغاء الاستعمار في مختلف أشكاله، الخفية كما في اليمن، أو المعلنة كما هي الحال بشمال افريقيا، ومع ذلك فإن هذين المبدئين الأساسيين لا يستتبعان مطلقا شكلاً من أشكال السياسة، بل هو المضمون، أما الشكل فليأخذ أي طابع من طوابع النظم على اختلافها، جمهورياً، ملكياً، أو استبدادياً مطلقاً.

ثانياً: العوامل الخارجية بعد الانتهاء من أهم عوامل الفوضى في العالم الإسلامي الداخلية التي مثلها مالك بن نبي بالقابلية للاستعمار (بوجود الأرضية الخصبة لقبول ودخول المستعمِر)، نشرع الآن بتوضيح أهم عوامل الفوضى في العالم الإسلامي الخارجية وهو الاستعمار نفسه، ومن الضروري تحديد مفهوم عبارة الاستعمار أو الاستعمار الاستبدادي، فإن للاستعمار صورتين الأولى هي صورة الاستعمار

المتحفظ، لا نه لا يتدخل مباشـرة في نواحي حياة المستَعمر جميعها، بل يطلق لأبناء المسـتعمرة بعض مظاهر الحرية؛ وعلى العكس من ذلك صـورة الاسـتعمار الاسـتبدادي، الذي يتدخل تدخلاً مباشـراً في جميع تفاصـيل الحياة حتى الدينية منها فتدخله يمتد إلى كل شـيء فيخصص لأبناء المستعمرات (مدارس استعمارية) يستعمر بها عقولهم، ويعتبر ظاهرة الاستعمار من أبرز العوامل الخارجية التي أدت إلى فوضى العالم الإسلامي فيقول: إن الاستعمار يحول بين الشّعب وبين إصلاح نفسه، فهو يضع نظاماً للإفساد والإذلال والتّخريب، يمحو به كل كرامة أو شرف أو حياء، إنّ الاستعمار هو أفظع تخريب أصاب التّاريخ. فبسبب الاستعمار استوى على قمة المجتمع الإسلامي الحديث رعاع النّاس، بينما هبط إلى القاع خيارهم وصفوتهم، وذلك لأن الاستعمار يهدم مقومات البلاد المستَعمرة ويحول بينها وبين إعادة بنائها.

لكن مالك بن نبي يعطينا بارقة أمل عندما يعقد مقابلة مباشرة بين **القابلية للاستعمار والاستعمار** باعتبارهما عوامل شلل وتعجيز، وسندرك من هذه المقابلة، أن المسـتعمَر يمكنه أن يتحرر من قابليته للاسـتعمار في الوقت الذي يسـتخدم فيه ذكاءه وجهده لتذليل العقبات وتخطي العوائق وتحطيم القيود.

المبحث السادس تحليل الفصل الرابع (فوضى العالم الغربي)

نعم تُشعرنا حالة العالم الإسلامي بأنه يقف في منطقة **(حرام)** في التّاريخ، ما بين فوضى ما بعد الموحدين والنِّظام الغربي، إن الواقع الاستعماري إذا كان قد أضرّ بحياة المسلمين إضراراً بليغاً، فإنه قد أضرّ كذلك بالحياة الأوربية ذاتها، والسبب لأن الاستعمار الذي يُهْلِك المستعمَرين مادياً، يُهْلِك أصحابه أخلاقياً، وذلك مثل ما يشهد به تاريخ اسبانيا منذ اكتشاف أمريكا. وهنا يوضح مالك بن نبي علاقة فوضى العالم الغربي **أوربا** بمثيلتها في العالم الإسلامي، والواقع أن هناك تأثيراً متبادلاً بين **فوضانا** وفوضى **أوربا**، فكلتاهما ذات وجهين، وذلك أن لفوضى أوربا وجهاً يُعد نتيجة بسيطة، ولكنها محتومة للحركة التّاريخية، أعني للعوامل الدّاخلية التي حتمت هذه الحركة، ولها وجه آخر عارض نتج عن تأثير الواقع الاستعماري على الحياة، وعلى العادات، وعلى الأفكار، منذ أكثر من قرنٍ. هذان الوجهان يؤلفان في مجموعهما ظاهرة مشتركة في جميع الحضارات، هي ظاهرة **تخلف الضّمير** في نموه عن العِلم وعن حركة الفِكر. فما الضّمير إلاّ تلخيص نفسي للتّاريخ، وخُلاصةٌ لأحداث الماضي مُنعكسة على ذات الإنسان، فهو بلورة للعادات والاستعدادات والأذواق.فكلما فقدنا اتصالنا بماضينا وتقاليدنا وعوائدنا فقدتْ ضمائرنا قدراً كبيراً من مكوناتها الأساسية، لأن هذه تظل بعيدة عن مخالطة الضّمير. تلكم هي مأساة الحضارة الحديثة في عمقها، فإن الضّمير الحديث لم يتمثل بعد أغلب ما حققه العِلم من مخترعات. وهذا التخلف بين الضمير والعِلم كان هو السبب المباشر في الانفصال الذي حدث في العالم الإسلامي في **(صفين)**، فالقرآن الكريم باعتباره نظاماً فلسفياً كان علماً يتجاوز في مداه آفاق الضمير الجاهلي بطريقة فريدة، فتنتج عن ذلك انفصال بين أولئك الذين تمثلوا الفكر القرآني الجديد، وأولئك الذين استعبدتهم حمية الجاهلية وأفكارها الاجتماعية، وشرائط الحياة التي جاء القرآن الكريم ليمحوها محواً من طبائع الناس.وإن أوربا انزلقت إلى حمأة المادية بسبب تأثير النّزعة العِلمية والنّزعة الاستعمارية، لقد مات معنى الفضيلة (المطلقة)، من الوجه الذي مات منه مفهوم (العدالة) في قول أحد الأوربيين: (إن تسوية جائرة خير من قضية عادلة)، وقد سارت الاقتصادية نفسها إلى مصيرها يوم وجد بعض النّاس في أنفسهم جرأة ليؤكد أن (التِّجارة هي السّرقة الحلال). وهكذا نجد أن أوربا النّازعة إلى (الكم) وإلى (النِّسبية) قد قتلت عدداً كبيراً من المفاهيم الأخلاقية، حين جردتها من أردتها النّبيلة، وأحالتها ضروباً من الصعلكة، وكلمات منبوذة في اللغة، طريدة من الاستعمال ومن الضّمير، كأنما صارت القواميس (أحياناً) مقابر لكلمات لا توحي بشيء، لأن مفهومها لا ينبض بالحياة. ولقد تعاظم خطر تلك النّزعة الكمية في أوربا، والذي تملكه صناعة غزت العالم، كأنها أخطبوط يُضاعف بصورة هائلة شهوة الإنسان إلى المادة، فهي تملي على الطّفل اتجاهه في الحياة، فلا يختار طريقة فيها إلاّ وقد وضع نصب عينيه ما يأخذ من المجتمع لا ما يُعطي، إنه عن حظه لا عن رسالته، ولقد كشفت هذه الأزمة عن السّرطان الأخلاقي الذي يلتهم الحضارة، والعجز عن حلِ المُشكلة الإنسانية.إن النِّظام الذي خلق الفوضى في أوربا ذو صبغتين، فهو علمي واستعماري في آنٍ واحد، فإذا ما كان في أوربا فَكَرَ بمنطق العِلم، أما إذا انْسَاحَ في العالم فإنه يُفَكر بعقلية الاستعمار .يوضح مالك بن نبي في ختام هذا الفصل **وجهة العالم الإسلامي في هذه الفوضى قائلاً:** "أياً كانت وجهة الأمر، فإنّ العالم الإسلامي لا يستطيع في غمرة هذه الفوضى أن يجد هُداه خارج حدوده، بل لا يُمكنه في كلِّ حال أن يلتمسه في العالم الغربي الذي اقتربت قيامته، ولكن عليه أن يبحث عن طُرُقٍ جديدة ليكشف عن ينابيع إلّهامه الخاصّة، ومهما يكن شأن الطُّرق الجديدة التي قد يقبسها، فإنّ العالم الإسلامي لا يُمكنه أن يعيش في عُزلة، بينما العالم يتجه في سعيِّه إلى التّوحد، فليس المُراد أن يقطع علاقاته بحضارة تمثل ولا شك إحدى التّجارب الإنسانية الكبرى، بل المُهم أن يُنظم هذه العلاقات معها".

المبحث السابع تحليل الفصل الخامس (الطُّرُق الجديدة لوجهة العالم الإسلامي)

يذكر مالك بن نبي أن الحاجة لا تكون فعالة خلّاقة إلاّ حين يمنحها الضّمير مِن روحه ما يُحيلها **عملاً ملزماً**، وهذا العمل الملزم هو الذي يَسّر للمجتمع الإسلامي أن يُحِيل أفكاره وحاجاته إلى منتجات حضارة، أما منذ ظهور إنسان ما بعد الموحدين فقد صارت عملية الإنتاج مجرد عملية استهلاكية، وليس يكفي مجتمعاً لكي يصنع تاريخه أن تكون له حاجات، بل ينبغي أن تكون له مبادئ ووسائل تُساعده على الخلق والإبداع. وعن الواجب، يقول: "ينبغي أن لا يغيب عن نظرنا أن (الواجب) يجب أن يتفوق على **الحق** في كلِّ تطور صاعد، إذ يتحتم أن يكون لدينا دائماً محصولٌ وافر، أو بِلُغة الاقتصاد السياسي (فائض قيمة)، وهذا (الواجب الفائض) هو أمارة التّقدم الخلقي والمادي في كلِّ مجتمع يشُق طريقه إلى المجد".وبناء على ما سبق يُمكننا القول: "إنّ كلّ سياسة تقوم على طلب **الحقوق** ليست إلاّ ضرباً مِن الهرجِ والفوضى. فالسياسة التي لا تحدث الشعب عن واجباته، وتكتفي بأن تضرب له نغمة الحقوق، ليست سياسة وإنّما هي **خُرافة**". وليس الشّعب بحاجة إلى أن نتكلم له عن حقوقه وحريته، بل أن نُحدد له الوسائل التي يحصل بها عليها، وهذه الوسائل لا يُمكن إلاّ أن تكون تعبيراً عن واجباته. سيكون على إنسان ما بعد الموحدين إذن، أن يُخفف مِن نزوعه إلى المُطالبة بالحقوق، لكي يفرغ لاستخدامِ الإنسان والتُّراب والوقت استخداماً فنياً لاستحداثِ تشكيلٍ اجتماعي، يُنتج مِن تلقاء ذاته **الحق**، وذلك بمُقتضى الاقتران الوثيق بينه وبين الواجب، فرسم سياسة معينة معناه إعداد الشُّروط النّفسية والمادية للتّاريخ، أعني إعداد الإنسان لِصُنع التّاريخ. **وإن الفِكر والعمل** هما الأمرانِ المهمان اللذان يقوم عليهما كلّ تطور في مجتمعٍ يُفكر في عمله ويعمل بفكره.

المبحث الثامن تحليل الفصل السادس (بواكير العالم الإسلامي)

في هذا الفصل يبدأ مالك بن نبي بتحديد دور العالم الإسلامي كممثل وكشاهد، إذ يرى أنّ العالم الإسلامي يمثل دورين يقوم بهما في وقت واحد، دوره ممثلاً، ودوره شاهداً، هذا الاشتراك المزدوج يفرض عليه واجب التوفيق بين حياته المادية والرُّوحية وبين مصائر الإنسانية، فهو لكي يقوم بدور مؤثر فعال في حركة التّطور العالمي ينبغي أن يعرف العالم، وأن يعرف نفسه، وأن يُعَرِّفَ الآخرين بنفسه، فيشرع في تقويم قيمه الذّاتية، إلى جانب تقويمه لما تمتلكه البشرية من قيم، فنهضة العالم الإسلامي إذن ليس في الفصل بين القيم، وإنّما هي في أن يجمع بين **العِلم والضّمير**، بين **الخلق والفنّ**، بين **الطّبيعة وما وراء الطّبيعة**، حتّى يتسنى له أن يشيد عالمه طبقاً لقانون أسبابه ووسائله، وطبقاً لمقتضيات غاياته.لقد بلغت **أوربا** الغاية في الفن والصناعة، ولكنها ارتدت عن المثل الأخلاقية، فلم تعد تعرف شيئاً من الخير للإنسانية فيما وراء حدود عالمها الذي لا يمكن فهمه إلا بلغة المادة، وما كان لحضارة أن تقوم إلا على أساس من التعادل بين الكم والكيف، بين الروح والمادة، بين الغاية والسبب فأينما اختل هذا التعادل في جانب أو في آخر كانت السقطة رهيبة قاضية. ويختم مالك بن نبي هذا الفصل السادس وفصول الكتاب ككل، ببارقة أمل إذ يقول: "إن الذي يَرُدُّ إلى العالم شبابه، لا بد أن يكون **(إنساناً جديداً)**، قادراً على حمل مسؤوليات وجوده مادياً وروحيّاً، ممثلاً وشاهداً، وإنسان ما بعد الموحدين إنسانٌ هَرِم، في طريقه إلى الفناء. ولكن العالم الإسلامي على الرّغم من ذلك لديه قدر كبير من هذا الشّباب الضّروري. ومنه فالسيرورة التّاريخية لتعاقب الدورة الحضارية تقوم على دورة مِن دورات الحضارة تولد في بعض الظُّرُوف النّفسية الزّمنية، ثمّ تنمو وتطرد، فإذا ما سبقتها الحضارة الإنسانيّة توقفت تلك الدّورة لتبدأ أخرى في ظروفٍ جديدة تتحول بدورها إلى ظروف متخلفة، فهذا هو القانون الذي خُطّ على مرِّ السِّنين خلال التّاريخ ذلك الطّريق الصّاعد، الطريق الذي منحتهُ البشرية في بطْءٍ وروية، وبذلك تمتزج غاية التّاريخ بغاية الإنسان".

الخاتمة

يقرأ ويحلل مالك بن نبي مستقبل العالم الإسلامي فيقول: لقد ظلّ العالم الإسلامي، خلال قرونٍ طويلة، مُتجمِداً في أشكالٍ سبق الحديث عنها، وهي الّتي أدت إلى وجود القابلية للاستعمار في مُجتمع ما بعد الموحدين، الّذي أدى إلى وجود الاستعمار. واليوم يتحرك العالم الإسلامي نحو الغدِ المأمول، أو بِعِبارةٍ أخرى: إن تاريخه قد استعاد حركته، ودبتْ فيه الحياة إذ أصبح في وضعٍ مُتحرك، وتكشفتْ له بعض الآفاق منذ قريب، وإنّه مهما يكن أمر الفوضى الرّاهِنة في العالم الإسلامي، فمِن المُمكن أن نتلمس فيه اتجاهين ليسا في طبيعة واحدة:-

أما أولهما: فهو ذو طابع تاريخي، وهو ناتج عن تأثير القوى الدّاخليّة الّتي تظهر في صورة فعلٍ وردّ فعل للاستعمار ولقابليته.. وعناصر هذا الاتجاه تتمثل في: حركة الإصلاح، والحركة الحديثة، وهما اللّتان تخلعان على العالم الإسلامي صورته الحديثة.

وأما ثانيهما: فلا يمكن فصله عن التّطور التّاريخي، المتمثل في الظّواهر الكُبرى لانتقال الحضارة في مُستواها العالمي، بمعنى انتقال مركز الجاذبية من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى آسيا.

وفي ختام هذا البحث نقول: إن المفكر مالك بن نبي – رحمه الله – في كتابه الموسوم بـ (وجهة العالم الإسلامي) والذي ألفه في عام (١٩٥٤م)، ضمن سلسلة مشكلات الحضارة، وصدرتْ الطبعة الأولى له عام (١٩٥٩م)، نجده يُحلل واقع العالم الإسلامي وما جاوره من عوالم أخرى أثرت فيه، ومن ثم يستشرف مستقبل وجهة عالمنا الإسلامي وفق ما توفر له من معطيات على أرض الواقع حينها.. وهو كتاب يستحق أكثر من قراءة وتحليل لكل الأفكار التي ذكرها المؤلف، يقول الأستاذ محمد المبارك في تقديم هذا الكتاب: "إنّك حين تقرأ هذا الكتاب تشعر أنك لست تقرأ كتاباً، ولكنك تعيش مأساة أمة، وتعيش معها خلال عشرة قرون أو أكثر، وتمر بعقد قصتها خلال هذه القرون"، لقد سلك المؤلف طريقة في كتابه هذا، لا تقوم على سرد التفاصيل والحوادث، بل على تحليل عميق لمراحل التّاريخ، وسير المدنية وتطورها، وهو يُقسم تاريخ المجتمع الإسلامي إلى ثلاث مراحل:-

أولًا: مرحلة الإسلام الأولى، في دفعته الإيمانية الحيّة، وتنتهي في معركة صفين.

ثانيًا: مرحلة المدنية الإسلامية، وهي مرحلة التّفكير والازدهار الحضاري، وتنتهي بسقوط دولة الموحدين.

ثالثًا: مرحلة الجمود والانحطاط.

يصف مالك بن نبي هذه المرحلة وصفاً تحليلياً عميقاً، ويخصُ المرحلة الأخيرة بالعناية لأنها المرحلة التي لا نزال نعيش في رواسبها وآثارها، ولأنها تمثل في نظره مرحلة القابلية للاستعمار.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) ينظر: مذكرات شاهد للقرن، مالك بن نبي، ندوة مالك بن نبي، ط٢، دار الفكر المعاصر (بيروت لبنان:١٤٠٤هـ-١٩٨٤م)، ص١٩-٣٤.

(٢) ينظر: موقع الجزيرة نت، مقال بتاريخ ٢٠١٤/٩/٢٤.

(٣) ينظر: مدونات الجزيرة، أسامة الخضراوي، ٢٠١٨/١٠/٢٥م .

(٤) مأخوذ من قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)، سورة البقرة الآية ١٤٣.